أحمد عبد الغفور عطّار



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعَة الأولى - ١٤٠٠ هـ

الطبعة الأولى ـ ١٤٠٠ هـ

الجوهري مبتكر منهج الصّحاح

كتب الأستاذ الفاضل الدكتور بكري شيخ أمين مقالاً تحت عنوان « الجاسر والعطار يكشفان عن خطأ علمي » نشره بمجلة « الخفجي » التي تصدرها « شركة الزيت العربية المحدودة » وأعادت جريدة « البلاد » السعودية نشره ، وكان ذلك سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) .

وجاء في المقال قوله : « لقد درجنا في الوطن العربي على تقسيم المدارس المعجمية إلى أربعة أقسام :

« الأولى ـ مدرسة الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه « العين » .

« والثانية ـ مدرسة ابن دريد في « جمهرة اللغة » .

« والثالثة ـ مدرسة الجوهري في معجم « الصحاح » .

« والرابعة ـ مدرسة الزمخشري في « أساس البلاغة » .

وكانت هذه التقسيمات مداراً لبحوث ودراسات ومؤلفات كثيرة في مختلف أرجاء الوطن العربي » .

ويقول : « والملاحظ أنه لا أحد من الباحثين اعترض على هذه التقسيمات ولا على أصحاب هذه المدارس ، وكأن ما وصلوا

إليه هو القول الحاسم الجازم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

« وجاء الباحثون السعوديون فأقروا شيئاً من هذه التقسيمات وأنكروا شيئاً آخر ، أقروا للفراهيدي بابتداعه طريقة جديدة في معجمه « العين » وأقروا لابن دريد ريادته في ترتيب « جمهرة اللغة » وأنكروا أن يكون الجوهري مبتدع ترتيب « الصحاح » كما أنكروا أن يكون الزمخشري مبتدع ترتيب « أساس البلاغة » .

« وهذا الانكار من العلماء السعوديين بني على أسس علمية ، وتحقيقات لغوية ، وبراهين حسية مدعومة بالبراهين الموضوعية ، والحجج العلمية .

« فلقد أثبت الشيخ حمد الجاسر في عدد من الأبحاث العميقة التي نشرها في مجلته « العرب » في أعداد سنتها الأولى أن أبا بشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي المتوفى سنة **٢٨٤** هـ (**٩٨٧** م) سبق الجوهري في منهج التقفية بمائة سنة ونيف ، لأن الجوهري توفي سنة **٣٩٣** هـ (**١٠٠٢** م) وأتى بالأدلة المادية ، والصور الفوتوغرافية لمخطوط البندنيجي المسمى بـ « كتاب التقفية » .

« وقد ذكر الشيخ حمد الجاسر أن هذا الكتاب من الكتب المغمورة التي قل أن يرد لها ذكر في كتب اللغة ، وهذا من الأسباب التي حملت كثيراً من الباحثين على الاعتقاد بأن الجوهري هو مبتكر منهج ترتيب الكلمات العربية بحسب الحرف الأخير منها ، ثم أورد الجاسر كلام البندنيجي عن طريقته ، كما أورد الأمثلة المختلفة الدالة على منهجه في ترتيب الكلمات .

ولكن باحثاً آخر استدرك على الجاسر اجتهاده فذكر الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) وهو خال الجوهري وأستاذه ، ومؤلف معجم « ديوان العرب »(١) سبق الجوهري بترتيبه والسير على نظام الباب والفصل ، وأن أصحاب المعاجم عيَّل على الفارابي في هذا الترتيب » .

ثم أشار الدكتور بكري أمين إلى ذهابي أن الزمخشري ليس مبتكر المنهج الذي يؤسس المعجم على أوائل الكلمات حسب ترتيب حروف الهجاء ، وإنما مبتكرها محمد بن تميم البرمكي .

وفيما ذهب إليه الدكتور بكري مجال للقول والنقد ، ومن ذلك قوله : « والثانية - مدرسة ابن دريد في جمهرة اللغة » .

ووجه الخطأ أن ابن دريد ليس صاحب مدرسة في معجمات العربية ، لأنه من مدرسة الخليل ، وقد أقمنا الدليل في « مقدمة الصحاح » على انتساب ابن دريد إلى مدرسة الخليل .

أما قوله : « درجنا في الوطن العربي على تقسيم المدارس المعجمية إلى أربعة أقسام » فما رأيت هذا الدرج ، وما كان هذا التقسيم إلا بأَخَرَة ، ولعلي أول من قسم المعجمات العربية إلى مدارس معدودات ، فقد ذكرت في « مقدمة الصحاح » هذا التقسيم ، وطُبِعَتْ مع الصحاح سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م) .

وفي سنة ١٣٦٠ هـ كنت بالمدينة المنورة - زادها الله شرفاً وتعظيماً ، ودار الحديث بمجلس العالم الفاضل السيد علي حافظ

---

(١) الصواب « ديوان الأدب » وأحسب الخطأ من المطبعة .

في المعجمات العربية ، وفي « تهذيب اللغة » للأزهري ، و« التكملة والذيل والصلة » للصَّغاني ، وفي « جمهرة اللغة » لابن دريد ، وعرضت على الحضور - وكانوا من أكابر أهل المدينة وعلمائها وأدبائها - رأيي في « مدارس المعجمات العربية » وعددهن ، فقال السيد الجليل علي حافظ : هذا شيء جديد أسمعه لأول مرة ، ولم أقرأه في كتاب أو صحيفة .

وأيده من حضروا ، ثم علم برأيي هذا الامام اللغوي الشيخ عبد القدوس الأنصاري ؛ وسألني فأجبته ، فسُرَّ وهنأني وقال : هذا جديد مبتكر غير مسبوق إليه .

ومعروف أن الامام الأنصاري حجة العربية ، وأول سعودي كتب في اللغة بحوثاً رائعة ، وما يزال - مدّ الله في عمره - من أئمة العربية في هذا العصر ، ومن أعظم الغُيُر على الفصحى : لغة القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام .

وإذا كانت « مقدمة الصحاح » قد طبعت سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م) فإن رأيي في تقسيم المعجمات العربية إلى مدارس قد سبق ظهور المقدمة بخمس عشرة سنة .

والثابت ظهور رأيي في مدارس المعجمات على نطاق العالم العربي والاسلامي ومحافل الاستشراق والمعنيين بالعربية قد كان سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م) في « مقدمة الصحاح » فكان رأيي في مدارس المعجمات وقَسْمها أول رأي في هذا السبيل .

ويعلم الدكتور بكري أنه لا يقال : « درج » إلا فيما عرف واشتهر ، وما كان هذا التقسيم معروفاً قبل مقدمة الصحاح التي طبعت مستقلة في كتاب بعنوان « الصحاح ومدارس المعجمات

العربية » الذي طبع طبعتين : إحداهما بالقاهرة ، والأخرى ببيروت .

وأما قول الدكتور بكري : « وجاء الباحثون السعوديون فأقروا شيئاً من هذه التقسيمات وأنكروا شيئاً آخر » فالذي أعرفه نقيض قوله ، فما ثَمَّ باحثون سعوديون أقروا شيئاً من هذه التقسيمات وأنكروا شيئاً آخر .

وإذا أراد الدكتور بالباحثين السعوديين الشيخ حمد الجاسر وكاتب هذه السطور فليس للشيخ الجاسر رأي في مدارس المعجمات ، وإنكاره على الجوهري ابتكار منهج الصحاح لا يغير من هذه المدارس شيئاً ، فهن كما هن حسب التقسيم الذي رأيته .

وأما قوله : « فلقد أثبت الشيخ حمد الجاسر في عدد من الأبحاث العميقة التي نشرها في مجلته « العرب » في أعداد سنتها الأولى أن أبا بشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) سبق الجوهري في منهج التقفية بمائة سنة ، لأن الجوهري توفي سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م) وأتى بالأدلة المادية ، والصور الفوتوغرافية لمخطوط البندنيجي المسمى « كتاب التقفية » فمردود .

ودليلنا الشيخ حمد الجاسر نفسه الذي ذكر أن هذا الكتاب من الكتب المغمورة التي قلّ أن يرد لها ذكر في كتب اللغة . أما أن « هذا من الأسباب التي حملت كثيراً من الباحثين على الاعتقاد بأن الجوهري هو مبتكر منهج ترتيب الكلمات العربية بحسب الحرف الأخير منها » فعجيب أن يصدر من علماء ذوي بصر ثاقب

من أمثال الدكتور بكري شيخ أمين يغفلون عن فهم المعجم اللغوي فيحسبون الصحاح وكتاب التقفية ذوي موضوع واحد ، ومنهج واحد ، وغاية واحدة ، مع أن البندنيجي أدرك معنى المعجم اللغوي ، وعرف الفارق بين عمله وعمل المعجم فسمى كتابه « كتاب التقفية » وذكر الغاية من التأليف ، دون أن يكون له منهج معجمي ، وسنذكر فيما سيأتي المزيد من البيان والبرهان .

أما مدارس المعجمات في العربية فأربع ـ كما ذكرنا في مقدمة الصحاح ـ وهن :

الأولى ـ مدرسة الخليل ، وسار على نهجها : ابن دريد في جمهرته ، والأزهري في تهذيبه ، وابن عباد في محيطه ، والقالي في بارعه .

الثانية ـ مدرسة القاسم بن سلام ، ونهج منهجه ابن سِيدَهْ في مخصصه ، والثعالبي في فقه اللغة ، ومن المحدثين المعاصرين عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى .

الثالثة ـ مدرسة الجوهري ، ونسج على منواله الفيروز أبادي في القاموس ، وابن منظور في لسان العرب ، والصَّغاني في التكملة والذيل والصلة ، وفي مجمع البحرين ، وفي العباب .

الرابعة ـ مدرسة البرمكي ، وتبعها الزمخشري في أساس البلاغة ، ثم ألفت عشرات المعجمات على هذا المنهج الذي صار أسلوب العصر الحاضر في تأليف المعجمات .

وذكرنا سمات كل مدرسة ومزاياها ، ولم نذكر مع المدارس

الأربع منهجاً جديداً لم نعتدَّه مدرسة ، وإن كان صاحب هذا المنهج مبتكراً ورائداً ، لم نذكر منهجه ولم نعتدَّه مدرسة ، لأن المنهج لم يكن متبوعاً ، ولم يأت بعده من يهتدي بهديه ، فبقي فذاً وحده ومهجوراً ، وهو نهج نشوان بن سعيد الحميري ، المتوفى سنة **٥٧٣** هـ في معجمه العظيم « شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم » .

وكتبت عنه منذ زمن بعيد ، وكنت بمدينة الرسول ﷺ سنة **١٣٦١** هـ أو قريباً منها فذكر لي العلامة السيد عبيد مدني ـ رحمه الله ـ أن لديه مختصراً للشمس ، ودعاني إلى منزله فزرته ، ولقيت شقيقه العلامة الأستاذ السيد أمين مدني ، مدّ الله في عمره .

واطلعت على المختصر ، وتحدثنا في المعجمات العربية ، وكانا قد علما برأيي في تصنيفها إلى مدارس ، فسألني السيد عبيد : لماذا لم تعُدَّ نشوان بن سعيد الحميري صاحب مدرسة ؟ أليس مبتكر منهجه في تأسيس معجمه ؟ .

فأجبته : بلى ، إنه مبتكر ورائد ،ولكني لم أعُدَّه صاحب مدرسة ، لأنها غير متبوعة ، ولم يأت من اتبع منهجه ! .

وعندما صدرت الطبعة اليمنية نقدتها في مجلة « الرسالة[1] » القاهرية ، وأشرت إلى طبعة ليدن التي حققها زتَّرْسْتِينْ ، وكلتا الطبعتين لم تستغرق من معجم نشوان إلا جزءاً يسيراً ، وطبعة

(١) العددان : ٩٤٩ و٩٥٠ الصادران في ٩ و١٧ ذي القعدة سنة ١٣٧٠ هـ (١٠ و١٧ سبتمبر سنة ١٩٥١) السنة التاسعة عشرة .

اليمن مزدحمة بمئات الغلطات ، وغير محققة بتة ، وخير منها طبعة زتَّرْستِينْ .

ومنهج نشوان بن سعيد الحميري الذي لم يتبعه أحد بعده قد وضحه هو نفسه في مقدمة معجمه إذ قال :

« وقد صنَّف العلماء رحمهم الله تعالى في ذلك كثيراً من الكتب ، وكشفوا عنه ما يستر من الحجب ، واجتهدوا في حراسة ما وضعوه ، وما حفظوه ، وصنَّفوا من ذلك وجمعوه ، ورَوَوْه عن الثقات وسمعوه ، فمنهم من جعل تصنيفه حارساً للنقط ، وضبطه بهذا الضبط ، ومنهم من حرَس تصنيفه بالحركات بأمثلة قدروها ، وأوزان ذكروها ، ولم يأت أحد منهم بتصنيف يحرس جميع النقط والحركات ، ويصف كل حرف مما صنفه بجميع ما يلزمه من الصفات ، ولا حرس تصنيفه من النقط والحركات إلا بأحدهما ، ولا جمعهما في تأليف لتباعدهما ، فلما رأيت ذلك ورأيتُ تصحيف الكتّاب والقرّاء ؛ وتغييرهم ما عليه كلام العرب من البناء حملني ذلك على تصنيف يأمن كاتبه وقارئه من التصحيف ، بحرْس كل كلمة بنقطها وشكلها ، وبجعلها مع جنسها وشكلها ، وبردِّها إلى أصلها ، وجعلت فيه لكل حرف من حروف المعجم كتاباً ، ثم جعلت لكل حرف معه من حروف المعجم باباً ، ثم جعلت كل باب من تلك الأبواب شطرين : أسماءً وأفعالاً ، ثم جعلت لكل كلمة من تلك الأسماء والأفعال وزناً ومثالاً ، فحروف المعجم تحرُس النقط ، وتحفظ الخط ، والأمثلة حارسة الحركات والشكل ، ورادَّة كل كلمة من بنائها إلى الأصل ، فكتابي هذا يحرس النقط والحركات جميعاً ، ويدرك

الطالـب فيه ملتمسـه سريعــاً ، بلا كدٍّ مطية غُرَيْرِيَّة[1] ، ولا إتعاب خاطر ولا رَوِيَّة ، ولا طلب شيخ يقرأ عليه ، ولا مفيد يفتقر في ذلك إليه ، فشرعت في تصنيف هذا الكتاب ، مستعيناً بالله رب الأرباب ، طالباً لما عنده من الأجر والثواب ، في نفع المسلمين ، وإرشاد المتعلمين ، وكان جمعي له بقوة الله عز وجل وحوْله ، ومُنَّته وطَوْله ، لا بحولي وقوتي ، ولا بطولي ومنتي ، لما شاء عز وجل من حفظ كلام العرب ، وحراسته بهذا الكتاب على الحقب ، وسميته « كتاب شمس العلوم ، ودواء كلام العرب من الكلوم ، وصحيح التأليف ، ومعجم التصنيف ، والأمـان من التصحيف » .

وذكر الدكتور بكري شيخ أمين أن باحثاً استدرك على الشيخ حمد الجاسر ، فذكر الفارابي ، وأنه سبق الجوهريَّ ، ولم يفتنا ذكر الفارابي ومنهجه قبل استدراك الباحث بسنوات .

وكتب الدكتور بكري شيخ أمين بحثاً في « الصحاح » وعملي فيه ، ونشره في « المجلة العربية »[2] وأعاد القول فيما ذهب إليه الشيخ الجاسر ، وجاء في البحث قوله :

---

(١) جاء في طبعة زتر ستين وطبعة اليمن : « غريزية » وهو خطأ ، صوابه : « غُرَيْرِيَّـة » نسبة إلى الغُرَيْرِ : فحل من فحول العرب ، وعندما كتب العلامة الشيخ عبد القادر المغربي كلمة عن « شمس العلوم » بمجلة المجمع العلمي بدمشق ، كنت في زيارة المجمع ، وكانـت بيده تجربـة مقالـه ، وأطلعنـي عليهـا ، ولـم يفطـن إلى خطـأ « غريزية » فذكرت له الصواب فسُرَّ ـ رحمـه الله ـ وذكر ما رأيتـه من الصـواب ، ودفعته أمانته إلى نسبة ذلك إليَّ ، وعدَّل مقاله .

(٢) العدد ٦ السنة الثانية ، محرم ١٣٩٨ هـ (٧٧ ـ ١٩٧٨ م) .

« ولم نطلع على رد الأستاذ العطار على هذه النقطة ، ولعله كتب ولم نصل إلى ما كتب ، أو لعله آثر عدم الرد معتقداً أن المنهج المتكامل للجوهري يخوله حق إمامة هذه المدرسة وادعائها »[1] .

وأنا لم أردَّ على ما ذهب إليه الشيخ حمد الجاسر ، لأن ما رآه لم أرض عنه ، وكنت أحسب أن من القراء من أمثال الدكتور بكري لن يفوتهم إدراك الصواب في هذا الأمر ، ولكن فاتهم ، حتى أن باحثاً عراقياً حقق كتاب البندنيجي أخذ برأي الشيخ الجاسر ، واضطرني ذلك إلى كتابة رد عليه نشر في السنة الماضية بمجلة « المنهل » لصاحبها العلامة الشيخ عبد القدوس الأنصاري ، وبالملحق الأدبي لجريدة « المدينة المنورة » .

واطلعتُ بأخَرَة على « كتاب التقفية »[2] ، محققاً بقلم الدكتور خليل إبراهيم العطية الأستاذ بكلية الآداب بجامعة البصرة ، وقرأت تقديمه الكتاب ، فإذا هو آخذ برأي الشيخ حمد الجاسر ومؤيدُه ومُسَلِّم به ومؤكدٌ أن الجوهري غير مبتكر منهجه في صحاحه ، وإنما المبتكر البندنيجي .

وجاء في تقديم الدكتور العطية قوله : « احتل معجم (تاج

---

(1) رأينا نشر بحث الدكتور بكري شيخ أمين لأنه أوجز ما ذهب إليه ، ولأن بحثه تناول منهجنا في التحقيق وتوثيق النص ، بعد أن حذفنا بعض الفقرات التي رأينا الاستغناء عنها .

(2) عُني بنشره وزارة الاوقاف بالجمهورية العراقية ، وهي وزارة متضرِّمة النشاط في نشر كتب التراث ، ومثلها وزارة الاعلام العراقية وغيرها من الوزارات والادارات التي نشرت مئات الكتب ، حيا الله العراق .

اللغة وصحاح العربية) المعروف بالصحاح لأبي نصر اسماعيل الجوهري المتوفى سنة اربعمائة للهجرة مكانة رفيعة لدى القدماء ، فأولوه رعايتهم ، وصادق اهتمامهم ، وتناوله كثير منهم بالدراسة بين شارح له أو مختصر أو ناقد .

« وتأثر بنظامه المعتمد على القوافي جمهرة منهم كانوا له محتذين ، وما زالت أشهر المعجمات المتداولة التي ارتضت طريقته كلسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس تشغل مكانة خاصة لدى الباحثين .

« ولعل طريقة الصحاح في ترتيب الكلمات على القوافي التي زعم الجوهري في مقدمته أنه مبتكرها ـ كانت من أهم أسباب ذلك الاحتفال وتلك الرعاية .

« وقد ظل الكثير من الناس على هذا الظن معتقدين أن الجوهري مبتكر هذا النظام الفريد لاتصافه بالسهولة واليسر اذا قيس بنظام معجم (العين) المخرجي العسير على المتكلمين[1] .

« ولقد آن أن نتبين أن لغوياً آخر هو البندنيجي سبقه إلى ابتكار هذا النظام بمعجمه الذي نقدمه للنشر محققاً » إلخ .

وعجبت من كلام الدكتور العطية ودعاواه وقذفه إمام العربية الجوهري واستخفافه به ، كما عجبت من عدم تفرقته بين « الصحاح » و« كتاب التقفية » في التأسيس والمنهج والنظام ،

---

(١) ليس بصحيح قوله : « المخرجي العسير على المتكلمين » فما ثَمَّ عسر عليهم ، وإنما العسر على الباحثين .

وبين الجوهري الامام الطُّلَعة الرائد المبتكر ، والبندنيجي الذي لم يفطن للعمل المعجمي .

ومن غير اللائق بعالم محقق أن يقول : « زعم الجوهري في مقدمته أنه مبتكرها » ولا يصح أن ينسب الزعم إلى الجوهري ، فما كان زاعماً فيما ادعى ، وإنما كان على الصدق والحق فيما قال بمقدمة صحاحه .

وذكر الدكتور العطية في تقديمه أن من بين من تناولوا الصحاح بالدراسة من شرحه ، وما علمت أن هناك شارحاً للصحاح ، فلعله يدلنا عليه .

ولما كان الدكتور العطية فيما ذهب إليه من نفي الابتكار عن الجوهري وحكمه به للبندنيجي تابعاً للشيخ الجاسر فإن ردنا عليه يشمله ، وها هو ذا الرد وليس النص المنشور ، لأننا أضفنا إليه بعض ما جدَّ لنا من رأي .

نشر الشيخ الجاسر في مجلته المسماة « العرب »[1] مقالاً بقلمه تحت عنوان « الجوهري ليس مبتكر منهج التقفية في المعجم العربي » .

يقول الشيخ حمد الجاسر : « لقد سبق الجوهريَّ إلى هذه الطريقة عالمٌ مغمور عاش قبل الجوهري بما يقرب من مائة عام ، وهذا العالم هو أبو بشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي » .

ويقول : « إن البندنيجي هذا ـ على ما ذكره ياقوت ـ عاش

---

(١) الجزء السابع ، السنة الأولى ، المحرم ١٣٨٧ هـ / نيسان ١٩٦٧ .

فيما بين سنتي ٢٠٠ و٢٨٤ هـ والجوهري عاش بين سنتي ٣٣٢ و٣٩٣ هـ على اختلاف في ذلك ، ومما لا شك فيه تقدم البندنيجي عليه في الزمن تقدماً لا يقل عن مائة عام » .

ويقول : « أما كتاب التقفية فإنه من الكتب المغمورة التي قل أن يرد لها ذكر في كتب اللغة ، وهذا من الأسباب التي حملت كثيراً من الباحثين على الاعتقاد بأن الجوهري هو مبتكر منهج ترتيب الكلمات العربية بحسب الحرف الأخير منها » .

ثم يقول : « أما منهج الكتاب فقد أوضحه مؤلفه في المقدمة التي نسوق بنصها(١) ليتبين ذلك المنهج واضحاً وهي هذه بعد البسملة مباشرة :

« هذا كتاب التقفية إملاء أبي بشر ، وسماه بذلك لأنه مُؤَلَّف على القوافي والقافية والبيت من الشعر ، ونظر في الكلام فوجده على الحروف الثمانية والعشرين المرسومة بألف با تا ثا عليها بناء الكلام كله عربيه وفصيحه فهي محيطة بالكلام لأنه ما من كلمة إلا ولها نهاية إلى حرف من الثمانية والعشرين حرفاً ، فأراد أن يجمع من ذلك ما قدر عليه وبلغه حفظه ، إذ كان لا غنى لأحد من أهل المعرفة والأدب عن معرفة ذلك ، لأنه يأتي في القرآن والشعر وغير ذلك من صنوف الكلام ، فجمع ما قدر عليه وأدركتْه معرفتُه ، ثم رأى أنه لو جمع ذلك على غير تأليف متناسق ، ثم جاءت كلمة عربية يحتاج الرجل إلى معرفتها من

(١) هكذا في الأصل . وهو من غلط المطبعة ، والصواب : بعضها .

كتابنا بعدُ لصعب عليه إدراكها لسعة الكلام وكثرته ، فألفه تأليفاً متناسقاً متتابعاً ليسهل على الناظر فيما يحتاج إلى معرفته .

« قال : ونظرنا في نهاية الكلام فجمعنا إلى كل كلمة ما يشاكلها مما نهايتها كنهاية الأول قبلها من حروف الثمانية والعشرين ، ثم جعل ذلك أبواباً على عدد الحروف ، فإذا جاءت الكلمة مما يحتاج إلى معرفتها من الكتاب نظرت إلى آخرها مما هو من هذه الحروف فطلبته في ذلك الباب الذي هي منه فإنه يسهل معرفتها إن شاء الله .

«وقد يأتي من كل باب من هذه الثمانية والعشرين أبواب عدة ، لأنا إنما ألفناه على وزن الأفاعيل ، فلينظر الناظر المرتاد وزن الكلمة في أي الأبواب هو فإنه يدرك الذي يطلبه .

« وأضفنا إلى كل كلمة من كل باب ما يشاكلها من الكلام الفصيح الذي لا يجهله العوام ليكون ذلك أجمع لما يريده المرتاد لما وصفناه .

«وأول ما ابتدىء في كتابنا هذا الألف ، لأنها أول الحروف ، وعلى ذلك جرى أمر الناس ، ثم نؤلفه على تناسقه » .

ونشر الشيخ الجاسر بضع صفحات من الكتاب ثنتين من أوله واثنتين من آخره ، وجاء بعد مقدمة المؤلف قوله : « باب الألف الممدودة : الاباء : القصب ، ويقال : رؤوس القصب » .

ثم يقول الشيخ حمد الجاسر : « ثم أورد كلمات على هذا الوزن وكلمات أخرى مثل : الاقواء ، والانحناء ، والاستخذاء ، والحوباء ، والأهواء ، وآخر الباب :

« الاغواء : يقال : أغواه يُغْويه إغواء إذا حمله على الغي ، ويقال : غَويَ الفصيلُ يَغْوي غَوى شديداً ، إذا شرب من اللبن حتى يكاد يسكر » إلخ .

وهذا كتاب التقفية ومنهج تأليفه ومؤلفه كما ذكر الشيخ الجاسر ، وكله برهان على أن دعواه بسبق أبي بشر البندنيجي الجوهريَّ ليست أهلاً للأخذ بها ، إذا أريد منها انتزاع راية الابتكار من الجوهري صاحبها الأصيل وإعطائها غيره .

فالجوهري إمام هذه المدرسة دون منازع وغير مُدَافَع وإن كان مسبوقاً في الزمن والتأليف من قبل البندنيجي أو الفارابي ، لأن البندنيجي وكتابه مغموران باعتراف الشيخ الجاسر ، ولأن البندنيجي لم يقصد أن يؤلف معجماً لغوياً ، وليس كتابه إياه ، وقد فطن لعمله فذكره في مقدمة كتابه إذ يقول : « هذا كتاب التقفية إملاء أبي بشر وسماه بذلك لأنه مُؤلَّف على القوافي والقافية والبيت من الشعر » .

فما ادعاه له الشيخ الجاسر لم يزعمه المؤلف لنفسه ، لأنه كان فاهماً ومدركاً حقيقة عمله .

ولو اطلع الجوهري على « كتاب التقفية » لما جرؤ إنسان يعرف الحق ويتبعه أن ينتزع راية الابتكار من الجوهري ويعطيها البندنيجي .

فكيف والامام الجوهري لم يطلع عليه ، إذ لو اطلع عليه لذكره وأشار إليه ، ولم أجد في معجمات العربية في عصر الجوهري ولا في المعجمات التي أعقبته أي إشارة إلى كتاب

البندنيجي مما يؤكد كلام الشيخ الجاسر أن البندنيجي وكتابه مغموران .

ولهذا لا يمكن أن ننفي ابتكار الجوهري طريقة تأسيس معجمه ، وما كان السبق في الزمن نافياً الابتكار ما دام من يوصف به لم يطلع على عمل من سبقه ، مع أن عمل البندنيجي ـ بعد أن عُرِفَ وظهر ـ لا يعد سبقاً بالنسبة للجوهري .

ولو ادعى الشيخ الجاسر أن الفارابي في معجمه « ديوان الأدب » سبق الجوهري في الابتكار والتأليف لكان في دعواه نظر ، أما دعواه في نفي الابتكار عن الجوهري أن البندنيجي سبقه فمردودة .

وقد سبق باحث هو العلامة المستشرق الألماني فريتس كرنكو (١٨٧٢ ـ ١٩٥٣ م) الشيخ حمد الجاسر في إنكار الابتكار على الجوهري ، وقد رددنا عليه إنكاره في مقدمة الصحاح ، وفندنا زَعْمَة كرنكو إذ ادعى أن الجوهري سرق في صحاحه موادَّ كتاب الفارابي وقلنا في صفحة ٨٠ ـ ٨١ :

« ولقد أسرف الأستاذ كرنكو في دعواه ، ولا سند له ، فديوان الأدب للفارابي وصحاح الجوهري موجودان ، ومنهما نسخ كثيرة صحيحة ، والفارق بين المعجمين كبير ، وبعد كل هذا نجد عمل الجوهري أصح وأكمل وأعظم من عمل خاله الفارابي .

« ونحن لا نشك في أن الفارابي يُعَدُّ واضع بعض أساس

منهج الصحاح ، وفوق هذا أربى الجوهري على خاله وأتى بنظام دقيق بذه فيه ، وكان نظامه آية بينة .

«ولعل مما أثار وَهْمَ كرنكو حتى زعم ما زعم أن ياقوتاً يقول : « رأيت نسخة من كتاب ديوان الأدب بخط الجوهري ، وقد ذكر فيها أنه قرأها على أبي إبراهيم بفاراب » ولا يبعد أن يكون الجوهري قد اطلع على كتاب خاله ، ولكن عبارة ياقوت غير دقيقة ، وينفيها أن الفارابي ألف كتابه في زبيد وتوفي بها ، وهذا يمنع الجوهري من القراءة على خاله ، ولا يمنعه من الاطلاع عليه واستنساخه .

« وإذا قلنا : إنه اطلع على « ديوان الأدب » وقرأه على مؤلفه فإن ذلك لا يوجب اتهام الجوهري بسرقة كتاب خاله ، فالفارق بينهما كبير في المنهج والترتيب والنظام وعدد المواد .

والتقاء الفارابي والجوهري في نقطة أو نقاط ليس دليلاً على أن الثاني سطا على الأول ، وإلا لَعُدَّ الامام الأزهري سارقاً كتاب العين للخليل ، وعُدَّ كل تابع مدرسة معجمية سارقاً من الرائد ، ولكن أحداً لا يستطيع ـ في مثل هذه الأحوال ـ أن يتهم عالماً إماماً بالسرقة إذا اتفق مع غيره في المنهج وأكثر المواد » .

وقلنا في مقدمة الصحاح صفحة ١٠٣ :

« ولم ننسب هذه المدرسة إلى الفارابي مع تقدمه ومع أن الجوهري يلتقي معه في بعض النقاط ، لأن الفارابي ألمع إلماعاً إلى بعض منهج الجوهري ، ولكن الجوهري جاء بما وفى على الغاية ، ووصل فيه إلى النهاية ، وأحكم النظام ، وضبط

المنهج ، فانتسبت المدرسة إليه ، وهو بهذه النسبة جدير ، لأنه إمامها الفاذ ، وعلمها الذي لا تخطئه العين مهما ابتعدت عنه » .

هذا ما قلناه في الفارابي والجوهري ومعجميهما مع شهرة « ديوان الأدب » للفارابي ومع تقدمه على الصحاح .

وسبْق كتاب التقفية للبندنيجي لا يغير من الأمر شيئاً ، فتقدم الزمن بأبي بشر البندنيجي وبمؤلفه لا يجعله إمام هذه المدرسة ورائدها ، وإذا كنا لم نرض بالامامة للفارابي الامام المشهور فإننا لا نرضى أن نحكم بالسبق للبندنيجي المغمور الذي لم يؤلف معجماً لغوياً وإنما ألف كتاباً في التقفية .

والمحاكاة في عمل الجوهري لعمل البندنيجي غير واردة ، ولم يَدَّعِها أحد ، ولا يمكن ان يدعيها ، فالجوهري لم يطلع هو ومعاصروه من مؤلفي المعجمات على كتاب البندنيجي ، لأنهما مغموران كما قرر الشيخ الجاسر .

فالامام الجوهري مبتكر منهجه ابتكاراً ، وقد انتهى إليه ابتداء وإن ظهر في هذا العصر على يد الشيخ حمد الجاسر أن « كتاب التقفية » تقدم معجم الصحاح بزمن غير يسير .

ونحن ـ ومعنا الحق والعلم والتاريخ والواقع ـ نؤكد أن الجوهري قد انتهى إلى منهجه دون أن يكون بين يديه مثال سبقه فتأسَّاه ، وإنما انتهى إليه بعد دراسة واعية شاملة لمناهج رُوّاد المعجمات العربية الذين سبقوه ، فهو قد رأى وعورة منهج الخليل فلم يأخذ به ، كما لم يأخذ بمنهج أبي عبيد القاسم بن سلام الذي بنى معجمه « الغريب المصنّف » على المعاني والموضوعات ، ولم يأخذ بمنهج أبي عمرو بن العلاء الذي

أسس معجمه المسمى « كتاب الجيم » على أوائل الكلمات متخذاً ترتيب حروف الهجاء ، مبتدئاً بالهمزة منتهياً بالياء ، وسبب انصرافه عن منهج أبي عمرو أن الجوهري رأى فاء الكلمة غير ثابتة في موضعها ، وكذلك الحرف الذي يليها وهو العين ، فاتخذ منهجاً جديداً يخالف ما عرف من مناهج المعجمات ، وخرج عليهم بمنهج غير معروف ، وأشار الجوهري نفسه إلى منهجه في مقدمة الصحاح قائلاً : « على ترتيب لم أسبق إليه ، وتهذيب لم أغلب عليه » .

والجوهري صدوق ، وقوله هذا حق كله ، فهو لم ينهج نهج الفارابي في كتابه « ديوان الأدب » مع أن منهجيهما يلتقيان في بعض النقاط .

وكلمة الجوهري : « على ترتيب لم أسبق إليه » تدل على أنه لم يطلع على كتاب التقفية للبندنيجي المغمور هو وكتابه ، وما دام الجوهري الامام الحجة الثبت الصدوق يقول : إن ترتيبه لم يسبق إليه فالقول قوله ، لأن الحق معه .

ومن آيات صدقه أن منهج الجوهري يختلف عن منهج البندنيجي اختلافاً واضحاً مشهوداً في تأسيس كل منهما كتابه بحيث لا تخطئه عين عالم ، وسبب كل منهما في التأليف غير سبب الآخر ، فالبندنيجي أراد من تأليفه تيسير القافية على راغبيها من الشعراء ، وهو مطلب خاص بفئة من الناس هي نَدْرَة نادرة فيهم ، وليس الشاعر الفحل المطبوع بحاجة إليه .

ولهذا نجد البندنيجي حشد المادة في بابها دون مراعاة الترتيب المعجمي السليم ،فهو لم ينظر إلاَّ إلى حرف القافية في آخر

الكلمة ، فلم يراع ترتيب الكلمات ، بل حشدها وساقها كما اتفق له ، فذكر ما كان منتهياً بالهمزة في باب واحد دون أن يراعي الاعلال الصرفي ، ودون أن يراعي الحرف الثاني والثالث ، بل دون أن يراعي الحرف الأول ، ولم يفطن إلى الترتيب الهجائي في ترتيب الكلمات ، بل لا حاجة له إلى هذه الفطنة ، لأنه لا يؤلف معجماً لغوياً .

فالبندنيجي يفتتح كتابه بباب الألف الممدودة ، ويذكر أول كلمة في كتابه « الاباء » مع أن الهمزة الأخيرة منقلبة عن ياء ، وهذا ما حمل الجوهري على أن يضعها في الياء ، لأن آخر حرف في الكلمة الياء ، والفصل فصل الهمزة لأن الكلمة مبدوءة بها .

ولكن البندنيجي لم يكن علماً بالصرف ، ولم يكن يقصد إلى تأليف معجم لغوي ، وإنما أراد أن يؤلف في « التقفية » ليكون كتابه عوناً للشعراء في كلمات القافية ، ولهذا لم يكن في حسابه الاعلال الصرفي ، بل كان كل همه صورة الكلمة ، فذكر الاباء في باب الهمزة ولم يذكرها في موضعها الأصيل وهو باب الياء .

ولم يكن البندنيجي آخذاً نفسه بالترتيب المعجمي ، بل يذكر الكلمات كما تتفق له دون أن ينظر إليه ، فيقدم ما حقه التأخير ، ويؤخر ما حقه التقديم .

وأصدق شاهد الصفحتان الأخيرتان من الكتاب اللتان صورهما الشيخ حمد الجاسر ونشرهما ، فقد جاءت فيهما هذه الكلمات على هذا الترتيب : الدالية ، الناحية ، البادية ، الجابية ، الكراهية ، الرفاهية ، الرفاغية ، المسائية ، الهاوية ، القارية ، الجامية ، النهاية ، العناية ، الراية ، الولاية ،

السانية ، الناجية ، الحاوية .

وهذا ليس ترتيباً معجمياً ، ولا يطلب من البندنيجي ذلك في كتاب التقفية ، لأنه لم يرد أن يؤلف معجماً لغوياً ، وإنما أراد أن يؤلف كتاباً في التقفية ، والاسم والعمل يدلان على مراده .

والترتيب المعجمي لتلك الكلمات بحسب صورتها الظاهرة هكذا :

البادية ، الجابية ، الجامية ، الحاوية ، الدالية ، الراية ، الرفاغية ، الرفاهية ، السانية ، المسائية (لأنها من ساء) العناية ، القارية ، الكراهية ، الناجية ، الناحية ، النهاية ، الهاوية ، الولاية .

وهذا ترتيب غير صحيح في فن المعجمات ، لأنه اعتمد على الصورة الظاهرة للكلمة دون أن يرجع إلى أصولها .

ومع أن البندنيجي ألف كتابه في التقفية فإن الكلمات التي ذكرها لا تصلح في قافية قصيدة واحدة ، ولا يمكن أن تأتي فيها لاختلاف تفعيلات البحور ، ولو جاءت قوافي في قصيدة واحدة لكان الميزان مضطرباً ، والخلل كريهاً ، وكان حرياً بمن يريد من كتاب يؤلفه لأصحاب القوافي أن يضمن لهم اليسر ، مع أن الأمر بَيِّنٌ ، ولو اهتدى بهدي الشعراء في قصائدهم لأدرك ذلك ، ولكنه لم يفطن للقافية في القصيدة الواحدة ، فحشد الكلمات وحشرها كما اتفق له .

والاختلاف واضح بين منهجي البندنيجي والجوهري وعمليهما وقصد كل منهما في عمله .

وإن سبق البندنيجي في الوجود وسبق كتابه لا ينفيان ابتكار الجوهري منهجه ، بل يثبتان له الابتكار الذي يؤكده أن البندنيجي نفسه وكتابه معه مغموران ، وليس نهجه نهج الجوهري الذي يختلف كله عن نهج البندنيجي في تأسيس المنهج وطريقته .

وما دام الشيخ حمد الجاسر نفسه يثبت ذلك ويذكره فلا يصح أن ينفي عن الجوهري ابتكاره لمنهجه المعجمي الذي لم يُسْبَقْ إليه .

ومن الثابت المؤكد أن البندنيجي لم يرد من كتابه تأليف معجم لغوي ، وإنما أراد تيسير القافية على الشعراء ، ولم يرد غيره ، وأما الجوهري فلم يرد خدمة الشعراء وإنما أراد أن يقدم معجماً فقدم أصح معجم عربي خطا بالتأليف المعجمي أوسع خطوة عرفها تاريخ المعجمات العربية .

وقد وهم بعض الباحثين فذكروا سبب ترتيب الجوهري صحاحه على أواخر الكلمات وزعموا أنه أراد تيسير القافية على الشعراء والسجع على الكتاب ، ورأينا نحن رأياً غير ما رأوا ، وقلنا في « مقدمة الصحاح » صفحة **١٢١ - ١٢٢** :

« وقد ذكر بعض الباحثين العلماء أن سبب اختيار الجوهري - أو من تبعه - ترتيب معجمه على أواخر الكلمات : التيسير على الشعراء والكتاب النظم والنثر ، فالكتاب كانوا يلتزمون السجع ، والشعراء القوافي ، فهم في حاجة إلى الكلمات باعتبار أواخرها ، أو أن غلبة السجع أو نظم القوافي هديا مؤلفي

المعجمات ـ وعلى رأسهم الجوهري ـ إلى هذه الطريقة .

« ونحن لا نقبل هذا الرأي ونراه غير علمي ، وإذا صح هذا السبب فما أهون شأن مؤلفي المعجمات وما أضأل القصد ! .

« والذي نراه أن منهج الجوهري في ترتيب صحاحه باعتبار أواخر الكلمات غير مقصود منه تيسير الأمر على الشعراء والكتاب ، حتى يجدوا السجع وكلمات القوافي دون عناء ، بل أراد الجوهري أن يؤلف معجماً للناس جميعاً دون أن ينظر إلى طائفة واحدة يؤثرها بعمله العظيم .

« أما المنهج الذي اتبعه فهو من ابتكاره ، وهداه إليه علمه الواسع بالصرف واشتغاله به ، فهو قد رأى أن ميزان الكلمة الفاء والعين واللام ، والتغيير يلحق ما قبل لام الكلمة ، وتنقلب « فَعَل » بين أحوال كثيرة وتأتي في صور شتى ، وهي : أَفْعَلَ وفَعَّلَ وفَاعَلَ وانْفَعَلَ وافْتَعَلَ وافْعَلَّ وتَفَاعَلَ وتَفَعَّلَ واسْتَفْعَلَ وافْعَوْعَلَ وافْعَوَّلَ وافْعَالَّ .

« وهذه ـ هي ـ أوزان مزيد الفعل المجرد ، ويظهر منها أن التغيير تناول الفاء والعين ، فتارة يتقدم الفاء حرفٌ وتارة حرفان ، وتارة ثلاثة ، أما العين فقد تنفصل عن الفاء وقد تنفصل عن اللام ، وقد تضعَّف .

« أما لام الكلمة فثابتة لا تتغير مهما اختلفت صورة الكلمة إلا في حالات قليلة ، ومتى لحقها التغيير أو زيد بعدها حرف أو حرفان فإن الكلمة تنتقل إلى أوزان أخرى ، ولا تعتبر من

الثلاثي ، بل تصير رباعية أو خماسية[1] .

« رأى الجوهري أن الفاء والعين لا تثبتان في موضع ، ولا تبقيان على حال ، أما اللام فثابتة ، فترك ترتيب الكلمات على أوائل الحروف لأن فيه مَتِيهَةَ الباحث الذي لا يعرف التصريف والمجرد والمزيد ، فكلمة « أكرم » واستنوق وترهل ومحجة تضلل الباحث الشادي ، بل رأيت بعض العلماء يضلون في الكشف عن مواضعها من المعجم ، ولا يعرف في أي حرف هي .

« أما طريقة الجوهري فمأمونة هادية ، فيجد الباحث « أكرم » وكل ما تفرع من مادة « كرم » في باب الميم ، واستنوق في باب القاف ، وترهل في باب اللام ، ومحجة في باب الجيم ، واذا كان الباحث عارفاً بالمجرد والمزيد فإنه سيجد أكرم في فصل الكاف ، واستنوق في فصل النون ، وترهل في فصل الراء ، والمحجة في فصل الحاء .

« وأعتقد أن ما ذكرته هو الذي حمل الجوهري على اتباع منهجه الذي ابتكره ابتكاراً ، أما السبب الذي رآه بعض العلماء ـ وذكرناه ـ فهو رأي لا قيمة له علمياً .

وأعانه على هذا الإبداع في نظامه علمُه الواسع بالنحو والصرف حتى قيل في وصفه : « إنه « خطيب المنبر الصرفي ، وإمام المحراب اللغوي » وإنه « أنحى اللغويين » .

---

(١) استدراك : ليس هذا تغييراً في لام الكلمة ، فهي ثابتة لا تتغير ، وإن زيد بعدها حرف فهو من جنسها ، وأما الضمائر التي تأتي في أواخر الأفعال فلا تغير من بناء الكلمة .

وما نزال عند رأينا وهو أن الجوهري سابق متفرِّد ، وإمام هذه المدرسة دون منازع ، ومبتكرٌ فاذٌّ ، ومبتدع منهجه ابتداء لم ينظر فيه إلى مثال سبقه .

وترتيب البندنيجي « كتاب التقفية » على أواخر الكلمات ليس من ابتكاره ، فقد سبقه إليه الشعراء منذ عرف الشعر العربي الذي يجيء في آخر كل بيت منه حرف القافية الموحدة في القصيدة كلها .

ورأى البندنيجي كلمات القافية فأخذها كما اتفق له وشرح بعض معانيها ، وفضله أنه جمع من هذه الكلمات « ما قدر عليه وبلغه حفظه » دون أن يراعي الترتيب المعجمي ، لأنه لم يرده ، أو لم يفطن له ، ولم يأخذ في حسابه إلا الكلمة في صورتها الظاهرة المنطوقة دون أن ينظر إلى أصل الكلمة وصرفها وما لحق بها من إعلال ، ودون أن ينظر إلى أوائل الكلمات ، بل حشدها حشداً ، وحشرها حشراً كما اتفق له ، منتهجاً في ذلك نهج الشعراء ، فهم لا يرتبون كلمات القافية ترتيباً معجمياً ، فقوافي الشعراء غير خاضعة لمنهج المعجميين ولا تتفق معه .

أما نظام الجوهري فهو النظام المحكم ، ومنهجه هو المنهج الحق الذي ابتكره ابتكاراً ، وسبق به كل من سار على نهجه .

وإذا كنا لم نَعُدَّ الفارابي الذي اتفق الجوهري معه في بعض نقاط منهجه إمام هذه المدرسة مع تبحره في اللغة فإن مما لا يصح أن يُعَدَّ البندنيجي رائد هذه المدرسة وإمام الجوهري ومن اتبع نظامه الدقيق المحكم ، لأن البندنيجي ـ أولاً ـ مغمور ، وثانياً ـ

لأن كتابه نفسه مغمور ، وثالثاً ـ لأن الجوهري وقبله الفارابي لم يطلعا على كتاب البندنيجي ، ورابعاً ـ لأن الجوهري يقول في مقدمة صحاحه : « على ترتيب لم أسبق إليه »،وهو صادق يؤيده واقع التاريخ ، وخامساً ـ لأن منهج الجوهري يختلف كل الاختلاف عن منهج البندنيجي ، وسادساً ـ لأن قصد كل منهما في كتابه يغاير قصد الآخر ، وسابعاً ـ لأن عمل الجوهري عمل معجمي صحيح تتوافر كل شروط المعجم فيه ، وثامناً ـ لأن عمل البندنيجي ليس عملاً معجمياً ، وتاسعاً ـ لأن كتاب البندنيجي ليس معجماً .

وخلاصة القول : إن تقدم البندنيجي في الوجود وسبقه في تأليف كتابه لا يمكن أن ينفيا عن الجوهري الابتكار ويسلباه إياه .

والبندنيجي لم يفطن للتأسيس المعجمي الذي فطن له الجوهري ابتداء ، وكان فيه رائداً وإماماً ، فهو لم يقتصر في الترتيب على الحرف الأخير من الكلمة ، بل نظر إلى الحرف الأول منها ، ثم وضع في حسابه الحرف الثاني ثم الثالث في الرباعي،ثم الحرف الرابع في الخماسي .

والبندنيجي لم يفطن لهذا النظام المعجمي الدقيق ، لأنه لم يقصد إلى تأليف معجم لغوي ، ولم يَدُرْ بخلده ذلك .

والجوهري لا يذكر مادة « حبب » بعد « حدب » لأن الباء أسبق من الدال في الترتيب ، أما البندنيجي فلم يفطن لهذا النظام الذي لا يكون المعجم معجماً تاماً إلا به ، وكتابه ليس في

حاجة إلى هذا النظام المعجمي الدقيق الذي أسسه الجوهري قبل كل رُوّاد المعجمات ومؤلفيها .

والحكم للجوهري بالسبق والابتكار والتفرد حقه وحده في هذا المنهج الذي سار عليه في صحاحه ، ولا يعد البندنيجي ممن أدركوا منهج الصحاح ، وكل ما اتفقا فيه أن البندنيجي اعتمد أواخر الكلمات ، وكذلك الجوهري ، ولكنهما يفترقان في هذه المزية أيضاً ، فالبندنيجي اعتمد على الحرف الأخير في الكلمة وإن لم يكن لام الكلمة ، أما الجوهري فلم يعتمد إلا على لام الكلمة وحدها .

ولو كان عمل البندنيجي ومنهجُه عملَ الجوهري نفسه ومنهجَه عينَه دون أن يطَّلع اللاحق على عمل السابق لكان كلاهما مبتكراً وسابقاً ، أما وأن عمل البندنيجي ونهجه يختلفان كل الاختلاف عن منهج الجوهري وعمله فإن راية السبق والابتكار والاجتهاد والريادة والامامة تبقى بيد الجوهري وحده .

وليس من الحق في شيء عقد مقارنة بين البندنيجي والجوهري ، بل من الاسراف في الظلم الحكم للبندنيجي على الجوهري ، ولكنه حكم غير مقبول ، بل يرده كل ذي معرفة بمناهج المعجمات العربية .

وآخر كلمة نقولها : ليس كل سابق في الزمن إماماً ، وما أشبه الجوهري بالامام في الصلاة ، يتأخر حضوره إلى المسجد عمن سبقوه إليه فيتقدمهم إلى محراب الامامة دون نزاع أو جدال .

وكذلك الجوهري الامام الفذ المبتكر السابق على كل من سار على نهجه ، بل هو الامام السابق الفاذ على التحقيق[1] .

(١) نشر هذا البحث في مقدمة «الصحاح» في طبعته الثانية الصادرة ببيروت سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) .

تكملة وصلة

عندما كتبت البحث الذي نشرته بين مقدمات الطبعة الثانية من « الصحاح » لم يكن العلامة البحاثة المحقق الكبير الدكتور ابراهيم السامرائي قد نشر بحثه العظيم في « صحاح » الجوهري و« تقفية » البندنيجي تحت عنوان « لا قياس بين صحاح الجوهري وتقفية البندنيجي » .

ولما كان من المتعذر على كل قارىء شراء « الصحاح » فقد رأيت نشر رأيي في ابتكار الجوهري صحاحه ليقف القارىء على الحق الذي خفي على حمد الجاسر الذي لم يفرق بين عمل الجوهري وعمل البندنيجي ؛ وظنهما من حزب واحد ، وهو من الجهل الذي لا يقع فيه أهل البصر بالمعجمات وتأسيسها .

ولو سبق إليَّ بحث العلامة السامرائي[1] لاستشهدت به ، ولذكرته في بحثي المنشور في مقدمات « الصحاح » ولكنني لم

(١) نشر بحث الدكتور السامرائي في جريدة « المدينة المنورة » في ملحقها « ألوان من التراث » وصدر عدد « المدينة » في يوم الخميس ٢٠ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ .

أطلع عليه إلا بأخرَة ، وهو جدير بإعادة نشره خاتمة لبحثي لأنه شاهد صدق على أن عمل الجوهري غير عمل البندنيجي ، ولأن العلامة السامرائي حكم عدل .

وها نحن أولاء ننشر بحث الدكتور السامرائي ، فلعل الدكتور خليل العطية المختدع بزعمات محمد الجاسر وغيره يعودون الى الحق .

أحمد عبد الغفور عطار
مكة المكرمة

لا قياس بين "صحاح" الجوهري و"تقفية" البندنيجي

بقلم الدكتور ابراهيم السامرائي

■■ عنيت العربية بالكلام المقفى ، منذ أقدم عصورها ؛ وهي في ذلك بِدْع بين اللغات السامية ؛ فلم نعرف لغة منها كان فيها للقافية ما كان لها في العربية ، وليس أدل على هذا ما حفلت به لغة التنزيل العزيز من أفانين السجع والمزاوجة .

وليس أدل على ذلك ـ أيضا ـ مما أثر من هذا الضرب من الكلام في حديث رسول الله ـ ﷺ ـ وحديث الصفوة من رجاله الأكرمين .

وليس لقائل يقول لنا إن النبي ـ ﷺ ـ أنكر على بعضهم أن يسجع في كلامه ؛ فقال : أسجعاً كسجع الكهان ؟ ومن هنا كان استعماله غير حسن والرد على ذلك أن الرسول أراد أن لا يتخذ سجع الكهان في الجاهلية وصدر الاسلام مادة تحاكى وأسلوبا يتبع .

لقد عني الرسول الكريم بكلامه ؛ فجاء من نماذج البلاغة العالية ، وكان من اهتمامه أن عني بالكلم ؛ فتعرض له السجعة ؛ فتحل في محلها عناية بجودة البناء وإحكاما له ، وإدراكا للمعنى المراد .

ألا ترى أن من عنايته بهذا اللون أنه عدل بالكلمة عن وجهها ؛ لتجيء على نمط أخواتها ؛ فقال للحسن بن علي بن أبي طالب ـ عليهما السلام : « أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة » وأراد : « ملمة » من الرباعي ألم .

ويندرج في هذا قوله ـ ﷺ ـ : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » ، وإنما أراد « موزورات » من الوزر ؛ فقال : « مأزورات » مكان موزورات ؛ طلبا للتوازن والسجع .

وحسبك أنك لا تجد سورة من سور القرآن قد خلت من الكلم المسجوع ، أو مما دخله ضرب من العناية كالمزاوجة مثلا ، وإنك لتجد السورة كلها مسجوعة على نحو ما كان في سورة الرحمن ، وإنك تقرأ قوله تعالى في سورة طه :

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾
تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ
ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٧﴾

فتشعر أن التزام الألف في هذه الآيات في أواخر الفواصل قد جعل من هذا النظم العالي أدباً عالياً وفناً رفيعاً ؛ هذا شيء من دلائل الاعجاز في لغة التنزيل العزيز ، وبمثل هذا يشعر قارئ سورة الشمس حين يقرأ من قوله تعالى :

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④

أو يقـرأ في سورة الضحـى :

وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③

وإنك لتقف الموقف نفسه ، حين تنتقل إلى سورة تلتزم فيها القافية ، على نحو محكم أشد الاحكام ، كما في سورة المدثر ، في قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦

وقد يتأتى الغرض الفني في الأسلوب القرآني بغير هذه الفواصل المسجوعة ؛ وذلك أن يقصد إلى ضرب من التناسب الذي يحقق الغرض ؛ ألا ترى في قوله تعالى في سورة الانسان :

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ④

أنهم قرأوا « سلاسلا » بالتنوين ؛ فقال المفسرون :

قرىء بتنوين (سلاسل) ووجهه أن تكون هذه النون بدلاً

من ألف الاطلاق . . . ولا أرى أن هذا التوجيه النحوي مقنع مفيد ، والذي أراه أن حرص المعربين على الأخذ بالتناسب سهل عليهم تنوين غير المنوَّن ؛ إخضاعا له ليكون مناسبا لقوله « أغلالاً وسعيراً » وكلاهما منون ، وأن تجيء الآية على هذا النسق من التنوين أوقع لدى طائفة من القراء .

ومن هذا ما جاء في السورة نفسها ﴿ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۞ قَوَارِيرَا۠ ﴾

لقد قرئت بترك تنوينها ؛ وهو أمر يخدم التناسب الذي أشرنا إليه ؛ وهو الأصل ـ أيضا ـ وقرىء تنوين الأول خاصة بدلا من ألف الاطلاق ؛ لأنها فاصلة ، وتنوين الثانية كالأولى إتباعا لها ، ولم يقرأ أحد بتنوين الثانية ، وترك الأولى .

وهذه القراءات تثبت أن الحرص على التناسب أساس فيها .

ومن المفيد أن أشير أن الجهابذة البلغاء قد درجوا على هذا النهج في أدبهم ؛ فكانت لهم عناية بالقافية والفواصل والتناسب ، وإليك مما كتبه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ فقال :

(أما بعد فإن الانسان يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ؛ فلا تكن بما نلت دنياك فرحا ، ولا بما فاتك منها ترحا ، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة بطول أمل ، وكأن قد ، والسلام) .

ثم إنك لتجد في نثر العباقرة من كتاب العربية ؛ كالجاحظ ، وأبي حيان ، وغيرهما عناية بالأسلوب ، دون أن يكون قصد

منهم أن يفيدوا من السجع ؛ فقد عزفوا عن ذلك لأنهم شعروا أن جمهرة أهل الكتابة قد أغرقوا في استعمال هذا اللون حتى استهلكوه ؛ فكانت السجعة هدفا لهم على حساب المعنى ، ثم إنهم توسعوا فيه ؛ فكان منه السجع المعروف ، والسجع المرصع ، وغير ذلك .

وقد يضيق القارىء ذرعا ؛ وهو يقرأ طائفة من المقامات الحريرية أو خطب ابن نباتة ؛ وذلك لغلوّهما في استعمال هذا الضرب في فن الكتابة .

ولقد أدى غلو أهل هذه القرون المتأخرة ؛ باستعمال السجع في الكتابة ، والتزام من خلفهم به إلى مطلع عصرنا هذا ، إلى أن يتجنبه المتأدبون في عصرنا . لقد وجد أدباؤنا أن موضوعات الأدب في هذا العصر غيرها في عصور سلفت ، وأن الحضارة المعاصرة مواد كثيرة ينبغي للأديب أن تكون له أدوات جديدة للاعراب عنها ، وعلى هذا لا يكون للأسلوب الملتزم بالسجع مكان في هذا الأدب الجديد .

ثم جاء شعراؤنا الجدد وجلهم شباب متطلع للجديد ، مأخوذ بما في الحضارة المعاصرة من فكر جديد مفيد ، ولكنه لم يتزود بالزاد الكافي من هذه الألوان الجديدة ، وكلها غريب وافد الينا ، قد نحس فينا حاجة إلى هذا الجديد ، وقد نحس أن ليس لنا غنى عن الأخذ بالألوان الأدبية في مغرب الدنيا ومشرقها ، ولكننا في الوقت نفسه لم نهتد إلى معرفة ما نملك من إرث سخي قديم ، وما أظن أن الأخذ بالوافد الجديد يفرض علينا أن نقطع صلتنا بأصول عزت أرومة ، وطابت مغرسا .

ولعل إخواننا هؤلاء قد فاتهم أن يعرفوا أن للحضارة مسيرة ، وأن الجديد النافع لا بد له أن يقوم على قديم مفيد .

ذهب الشعراء الشبان إلى أن الشعر ؛ بأوزانه المعروفة ، وقوافيه ، شيء عتيق لا بد أن يصار منه إلى نماذج جديدة - يرى هؤلاء أن الوعاء القديم لا يتسع للفكر الجديد ، ولكنك تتلمس أوعيتهم الجديدة فلا تستطيع أن تلمس شيئا من جدة الفكر ، ونصاعته ، فأين الموضوع ؟ إن كثيرا من هذه النماذج التي لا يريد أصحابها أن تسمى قصائد غامض مبهم ، غير أن هذا الغموض وذاك الابهام لا يترشح منه شيء مما يقال عنه إنه فكر جديد .

وقد شاء أصحابنا ؛ من الشبان المتأدبين ، أن يدعوا شعرهم بـ (الحر) ، وأن ما كان موزونا مقفى بـ (العمودي) ، وأنهم أساءوا فهم (العمود الشعري) فصار عندهم الالتزام بالوزن والقافية ، ولم يكن (عمود الشعر) عند النقاد الأقدمين شيئا من هذا ، ولو أنهم رجعوا إلى ما كتبه المرزوقي في الموضوع لاهتدوا إلى ذلك ، وإلى ما كتبه ابن طباطبا العلوي في (عيار الشعر) .

كأنهم شعروا أن التزام الوزن والقافية الواحدة عقبة تحول دون إدراك ما يبتغون من صيرورة أدبهم الجديد مادة جديدة في موضوعها ، ولم يتأت لهم هذا ، وأنّى لهم ، والبضاعة قليلة ، والزاد غث لا غناء فيه ؟

ثم إنك لتجد في هذا الأدب الحر الجديد ميلا إلى التزام قواف ورجوعا إليها ما أمكنهم السبيل ، وقد تجد القطعة التي (كتبها) صاحبها ذات وزن وقافية واحدة ، ولكنه كتبها بصورة أبعدتها

عن أن تكون صدورا وأعجازا لقصيدة مألوفة . ثم إن صاحبها ليعمد إلى خرم في الوزن ، ومجافاة للمألوف فيه ، وكأن ذاك متعمد مقصود ؛ ليشهد على نفسه أنه جديد مجدد ، وأن أدبه (حر) طليق ، وأن (فنا) وحيلة في رسم أشطاره ليكفي أن يكون نمطاً جديداً .

وأنا أسأل طائفة من أصحابنا أهل (الحر) الجديد الآخذين به ، العائبين على القصيدة في أوزانها المعروفة وقوافيها أنها أدب ميت قاصر ، أو مومياء محنطة ، وليس خيالا (مجنحا) جديدا فأقول :

لم يعمد هؤلاء المجددون إلى اللون القديم الذي دعوه (العمودي) حين ينظمون في (مناسبة) وطنية ؟ ألم يقولوا إن (العمودي) قاصر لا غناء فيه ، وإن (العمودي) لا يمكن أن يكون وعاء للجديد من الفكر ، ألم تكن (المناسبة الوطنية) موحية لفكر جديد وأدب جديد ولون جديد ؟

هذه سؤالات لم أتبين لها جوابا .

أنا لا أنكر أن الكثير من الشعر الذي التزم فيه الوزن والقافية صناعة غثة وبضاعة بائرة ، وأنه رصف ميت مفتقر إلى كثير من عناصر الحياة ، غير أني أشعر - أيضا - أن شيئا كثيرا من جديد القوم مما يدعى (حرا) ضرب من كلام خلا من ظلال للمعاني ؛ بله الجديدة منها .

ولا بد لي من أن أعود إلى القافية فأشير إلى أن غير العرب من الأمم السامية قد حاولوا أن يصنعوا صنيعهم ؛ فيكتبوا نثرهم مسجوعا .

ثم إن اللغويين الأقدمين لما رأوا ما للقافية من مكان في نثر العرب وشعرهم ـ عمدوا الى تصنيف المصنفات في الموضوع ؛ فكانوا يجمعون الاسجاع في الأقوال المأثورة والأمثال وغيرها ، منوهين بهذا الضرب من فن النثر .

وقد بلغ الأمر إلى أن يصنعوا معجمات تشتمل على الألفاظ التي تنتهي بقافية واحدة ؛ مثل : الصغير ، والكبير ، والقدير ، والحقير ، وصدور ، ومصدور ، ومثل : جناب ، وإياب ، ورباب ، وعذاب ؛ هكذا استوفوا جل أبنية العربية ، ولم يكن غرضهم إلا جمع الأشباه والنظائر من الألفاظ التي جاءت على قافية واحدة .

■■ وعلى رأس هذه المصنفات كتاب (التقفية في اللغة) لأبي بشر بن أبي اليمان البندنيجي (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ) والكتاب من سلسلة إحياء التراث التي تصدرها وزارة الأوقاف في الجمهورية العراقية .

وقد حققه وبذل فيه الوسع الدكتور خليل إبراهيم العطية ، وقد دبجه بتعليقات مفيدة ، ولقد أشار السيد المحقق في مقالة له ـ لعلها كانت من مادة الدراسة التي اشتملت عليها المقدمة ، والتي لم تنشر مع الكتاب ، إلى أن البندنيجي المصنف قد سبق إسماعيل بن حماد الجوهري في صنعة « الصحاح » وذلك لأن كتاب « التقفية » اشتمل على القوافي وهي أواخر الكلمات ، وعلى هذا كان المصنف ؛ وهو من علماء القرن الثالث الهجري سابقا لصاحب (الصحاح) في ابتداع هذه الطريقة المعجمية ؛ وهي تصنيف الكلم بحسب الحرف الأخير فيها .

ولقد سبق السيد المحقق إلى هذا الرأي الأستاذ الفاضل حمد الجاسر ؛ صاحب مجلة (العرب) فقد نشر مقالة في المجلة نفسها ، منذ أكثر من ثماني سنوات ؛ ذهب فيها هذا المذهب ؛ حين عثر على المخطوطة التي اعتمد عليها الدكتور خليل العطية في التحقيق ؛ وهي مخطوطة فريدة .

وقد حسبت الأمر حقيقة ، حين ظهرت مقالة الأستاذ الجاسر ، ثم مقالة الدكتور العطية ، غير أنني حين قرأت الكتاب بعد نشره تبينت أن لا قياس بين (الصحاح) وكتاب (التقفية) !

■■ أقول :

كأن صاحب كتاب (التقفية) كان يرمي إلى أن يصنف كتابا يجمع فيه ما (تيسر) جمعه من الألفاظ التي تشترك في قافية واحدة ، ويقسمها تقسيما يتساهل فيه مع الأبنية ؛ فهو يجمع الكلمات : صغير ، وكبير ، ومقدور ، ومثير ، في مكان واحد ؛ لمجيء الراء قافية فيها ، بصرف النظر عن أن صغير وكبير على « فعيل » ومقدور على « مفعول » ومثير على « مفعل » ؛ وهذا مما تسمح القوافي به في نظم الأشعار .

وهو يجمع : إهاب ، وجناب ، ورغاب ، وضباب ، في مكان واحد ، مع أن كل واحدة من هذه الكلمات من بناء يختلف عن نظائره ؛ فهو فِعال في الأول بكسر الفاء ، فَعال في الثاني بفتحه ؛ وهما مفردان ، وفعال في الثالث ، والرابع ؛ وهما جمعان لـ « رغبة » و « ضب » .

وهكذا جرى صاحب « التقفية » ، ومن غير شك أن هذه الطريقة لا يمكن أن تستوفي ألفاظ العربية ، وعلى هذا لا يمكن أن يكون كتاب (التقفية) معجماً يضم العربية على نحو (العين) و« الصحاح » ونحو ذلك . إن هذا الغرض من الكتاب من شأنه أن يجعل المؤلف مضطرا أن يأتي بما يحقق له الغرض ؛ وهو جمع الألفاظ ذات القافية الواحدة .

فأين هذا من (الصحاح) الذي أراد له صاحبه أن يأتي شاملا للصحاح الفصاح من العربية ؟

ثم إن صاحب (التقفية) لما كان غرضه جمع الألفاظ ذات القافية الواحدة ؛ مقسّمة على ما يشبه الأبنية مما يتساهل معه في أن يأتي قافية لشعر أو كلمة مسجوعة في نثر ، لم يعن بأوائل الكلمات .

أما الجوهري فقد عني بأواخر الكلمات وأوائلها من غير اهتمام لأوزانها أو ما هو قريب من أوزانها ، وصنف الكلمات المنهية بقافية واحدة ؛ أي بحرف من الحروف الهجائية بحسب أوائلها ؛ وهو يصنف مثلا في حرف الباء فصل الكاف الألفاظ الآتية :

كأب ، كبب ، كتب ، كثب ، كحب ، تاركا « كجب » لعدمه في العربية وهكذا يفعل في سائر الحروف ، فهل شيء من هذا جاء في كتاب « التقفية » ؟ من غير شك لا .

وبعد ، أليس أن نتجنب العلم فنقول : إن صاحب (التقفية) أصل في ابتداع هذا النظام المعجمي ، وإن

(الجوهري) قد قلده ، وأخذ منه الطريقة ؟ ولم يكن صاحب (التقفية) بمعنيٍّ بأوائل الألفاظ ؛ وهي التي دعيت فصولا في (الصحاح) .

■■ أقول : ليس هذا من ذاك فكتاب (التقفية) ليس إلا معجما خاصا نظير كتب (القلب والابدال) و(الهمز) و(المقصور والممدود) وغيرها من المواد اللغوية .

وهذه الكتب هي معجمات خاصة ـ أقول :

« خاصة » لأنها ترمي إلى غرض معين ؛ وهو جمع طائفة كبيرة من الألفاظ ذات صفات خاصة ، وليس من غرض مصنفيها استيفاء معاني الألفاظ . إن نظرة مع موازنة بين هذه الكتب والمعجمات المطولة تثبت ما ذهبت إليه . ومن غير شك أن ليس شيء من ذلك يقربها من كتاب (الصحاح) وهو المعجم اللغوي الشامل .

ولا يهمني ولا يهم العلم أن يكون هذا سابقا لذاك ، ولكني وددت أن أشير إلى أن الكتابين مختلفان ، لكل منهما منهج وطريقة وهدف ؛ فليس هذا من ذاك في شيء .

ولا بد من عودة إلى كتاب (التقفية) لأسجل ـ هنا ـ أن الكتاب أصابه من التصحيف والخطأ ما ذهب بنضارته ، وما حمل الضيم على جهد المحقق السخي .

ومن المؤلم ـ حقا ـ أن يساء إخراج كتاب جليل ينشر أول مرة على هذا النحو ؛ ذلك أن إعادة نشره عسيرة لا سبيل إليها ؛ بل قل أشبه بالمستحيلة .

ولقد تهيأ لي فيه من المآخذ قدر كبير يطمع في تأليف كتيب صغير ، مع إقرار أن عمل المحقق جيد ، وأن جهده كبير ، وأني لم آخذ عليه إلا مسائل يسيرة .

الخاتمة

لما كان الله تبارك وتعالى قد أمر ببرِّ الوالدين ، وكذلك رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وجاء في الحديث الشريف عنه ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنْتَفَعُ به ، أو ولدٍ صالح يدعو له » فإن من حق والِدَيَّ عليَّ أن أدعوَ لهما ، لأنهما سبب وجودي وتربيتي وتعليمي .

ومع دعائي لهما أهدي ثواب الانتفاع بهذا الكتاب إلى والدي « عبد الغفور » ووالدتي وزوجتي « أم هشام » .

رحمهم الله رحمة واسعة ، وغفر لهم ، وأنزلهم الفردوس الأعلى بفضله وكرمه ، آمين .

الاثنين ١٤ جمادى الأولى هـ .

٣١ مارس ١٩٨٠ م

أحمد عبد الغفور عطار

مكة المكرمة